الفصل العاشر

أسباب انهيار دولة المماليك الجراكسة

الفصل العاشر

أسباب انهيار دولة المماليك الجراكسة

لقد كان لموقع مصر الجغرافي أهمية كبيرة، مما مكّنها من السيطرة على أغلب الطرق التجارية التي تربط بين الشرق والغرب، وما ترتب على ذلك من رخاء اقتصادي ودور سياسي لدولة المماليك الجراكسة لمدة تزيد على مائة وأربع وثلاثين سنة من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي [1]، وعلى الرغم من تلك السيطرة، لم تكن نهايتها وانهيارها كالنهاية التي حصلت لدولة المماليك البحرية التي سبقتها، ونتيجة لأسباب كثيرة ومؤثرة كان أبرزها، السبب الاقتصادي المتمثل بظهور البرتغاليين[2]، والسبب السياسي المتمثل بالدولة العثمانية وسياستها التوسعية، فضلاً عن سياسة الاحتكار التي مارسها سلاطين المماليك وكانت خاتمة أسباب انهيار دولة المماليك الجراكسة.

أولاً: ظهور البرتغاليين

لقد أدّت الأطماع الاقتصادية والدينية والسياسية إلى القيام باستكشافات جغرافية من لدن الأسبان ومن ثم البرتغاليين، وذلك ما حفز كولومبس وهنري الرابع، إذ حاول الأخير القيام بحملات صليبية ضد المسلمين في شمالي أفريقيا في سنة 818هـ/1415م [3]، وكان الهدف من ذلك أمرين، أولهما: الوصول إلى أسواق الهند والشرق، وثانيهما الوصول إلى مملكة القديس يوحنا في شرقي أفريقيا، وهي مملكة مسيحية لذلك أراد الأوربيون السيطرة

(1) عبد الوهاب حمودة ، صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي (مطبعة دار المعارف، مصر: 1965م)، ص7؛ محمد يحيى الحداد، مقاومة العرب للنشاط البرتغالي البحري بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح في الهند، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي (بغداد: 1993م): ع 45/ص21-22.

(2) البرتغال: مدينة تقع في جنوب غرب أوربا، تحدها أسبانيا من جهتي الشمال والشرق، ومن جهة الغرب والجنوب المحيط الأطلسي. ينظر: مصطفى فاخوري، الاقطار والبلدان (دار المعرفة الجامعية، بيروت: 2003م)، ص 100؛

E. B. " Portugal ": Vol. 18 / p. 274.

(3) Bury , The Cambridge: Vol. VII / p. 581.

على تلك المملكة لجعلها قاعدة لهم من أجل القيام بأعمال حربية ضد الدول الإسلامية التي تحتكر تجارة الشرق [1].

تعود نشأة مدينة البرتغال إلى أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وقد تناوب على حكمها عدة أُسر لذلك تميزت الفترة (759-785هـ/1357-1383م) باضطرابات داخلية نتيجةً للحرب الأهلية، أما في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، فأخذت مدينة البرتغال بالاستقرار، وتمكنت من إنشاء قوة بحرية لها مما جعلها تقوم بإعمال توسعية ابتداء بمدينة سبته[2]، سنة 818هـ/1415م في عهد جون الأول، ولاسيما أنها استمرت بأعمالها العدائية، فأرسلت البعثات الاستكشافية إلى السواحل الأفريقية لأغراض تجارية من جهة، ولمحاربة المسلمين من جهة أخرى [3].

لقد كان لمدينة البرتغال دورٌ مهمٌ في انهيار دولة المماليك الجراكسة، ولاسيما بعد أن تمكنوا من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، الأمر الذي أدى إلى تغيير مسار القوافل التجارية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي، وذلك مما مكنهم من السيطرة على تجارة الشرق، ونقل البضائع مباشرةً إلى أوربا من دون المرور بموانئ دولة المماليك الجراكسة [4].

---

(1) لقد تمكن البرتغاليون من السيطرة على سبعة مناطق مهمة في منطقة الشرق، الأولى منها: يمتد من رأس الرجاء الصالح إلى البحر الأحمر، وهذا يضم جميع ساحل شرق أفريقيا، والثانية: جنوب بلاد العرب ومدخل الخليج العربي، والثالثة: تبدأ من الخليج العربي إلى مصب نهر السند، والرابعة: تشمل جزءاً من الساحل الشرقي للهند حتى البنغال، والخامسة: تضم الساحل الغربي للهند حتى رأس كومورن Comorine ، والسادسة: تشمل الساحل الغربي لجنوب شرق آسيا والنصف الغربي لأرخبيل الملايو، والسابعة: وتشتمل على جزر التوابل في مولاكاس Moluccas والجزر المنتجة لخشب الصندل، وهي فلورس Flores . ينظر: أمين، دراسات في نشاط ، ص 81؛
E. B. " Portugal " : Vol. 18 / p. 279.

(2) مدينة سبته: مدينة ساحلية تقع في أقصى شمال المغرب الأقصى بين شبه جزيرة أيبيريا والبر المغربي. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج 3 /ص 182-183؛ القزويني، آثار البلاد، ص 201؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 132.

(3) اليوسف، العصور الوسطى الأوربية (المكتبة العصرية، بيروت: 1967م)، ص 342-343؛ مفيد كاصد الزيدي، موسوعة تاريخ أوربا الحديث والمعاصر (دار أسامة، الاردن: 2004م): ج2/ص406-407.

(4) هـ. أ. ل. فشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الاوربية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة: زينب عصمت راشد وآخرون (دار المعارف، مصر: 1962م)، ص 2؛ جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة: فؤاد السيد (مطبعة المدني، مصر: 1988م)، ص 38؛ محمد انيس، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914م (مطبعة تكنوبرنت، القاهرة: 1985م)، ص 104؛ سليم، عصر سلاطين:ج 2/ص260؛

وبذلك شهدت نهاية العصور الوسطى حركة استعمارية لتحقيق التوسع الأوربي على حساب الشرق عامةً ودولة المماليك الجراكسة خاصة، والتي وقع على عاتقها مقاومة الغزو البرتغالي الذي قام بعمليات الاستكشافات الجغرافية [1]، المتمثلة بالطرف الشمالي الغربي من الساحل الأفريقي للبحر المتوسط والمحيط الأطلسي، والمياه العربية الجنوبية للبحر الأحمر والخليج العربي [2]، وذلك لتلبية الطلب المتزايد على تلك السلع في أوربا [3].

وعلى ما يبدو ان التوجه البرتغالي نحو المنطقة العربية الإسلامية كان له أسبابه من أبرزها العامل الاقتصادي، وهو البحث عن الذهب الغيني Ginia Gold والتوابل هذا من ناحية، ولعل هذا ما عبر عنه فاسكو دي جاما عندما سأله حاكم كاليكوت عن سبب مجيئه إلى الشرق، أجابه ((المسيحية والتوابل))[4]، ومن ناحية أخرى التطورات الاقتصادية التي حصلت داخل المجتمع الإقطاعي الأوربي الذي اتسم بالضعف مع نشوء الرأسمالية التي أدّت بدورها إلى زيادة نفوذ التبادل الأوربي مع زيادة رأس المال التجاري، الأمر الذي شجع على العمل بالتجارة الخارجية والاهتمام بها، فضلاً عن ذلك كله كانت النزعة الصليبية تراودُ عدداً كبيراً من رجال البحرية البرتغالية [5]، التي ورثوها من تاريخهم الماضي [6]، ومقابل ذلك اضطراب الوضع السياسي في المنطقة العربية الإسلامية، المتمثل

David Ayalon , Gunpowder and firarms in the Mamluk Kingdom (Great Britain , London: 1956) , p. 98 ; Toussant , History , p. 94.

(1) لم يكن البرتغاليون هم أول من قام بتلك الاستكشافات الجغرافية بل سبقهم إلى ذلك الجنويون، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل. ينظر:

Toussant , History , p. 95.

(2)إبراهيم خليل احمد، بدايات التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي (بغداد: 1999م):ع43/ص 25-26؛ فشر، أصول التاريخ، ص 79؛ الزيدي، موسوعة تاريخ: ج2 /ص 409.

(3) أمين، دراسات في النشاط، ص 51.

(4)Toussant , History , p. 93.

(5) في سنة (894-895هـ/1488-1489م) قام احد الملاحة البرتغاليين، ويدعى بيرو دي كوفلها بالإبحار من أجل البحث عن بلاد التوابل، فوصل إلى عدن ومن ثم توجه إلى جزر الكنار وكلكتا وهرمز وسفالة وبعد ذلك توجه غرباً نحو القاهرة وعاد بعد ذلك إلى هرمز. ينظر: صالح اوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليين في الخليج العربي (1534-1581م)، ترجمة: عبد الجبار ناجي (مطبعة الإرشاد، بغداد: 1979م)، ص 17-18.

(6) عبد القادر يوسف الجبوري، التاريخ الاقتصادي (دار الكتب، بغداد: 1980م)، ص74؛ اوزبران، الاتراك العثمانيون، ص 17؛ أمين، دراسات في النشاط ، ص 7.

في الصراعات المستمرة بين القوى الإسلامية أي المماليك والصفويين والعثمانيين [1]، هذا فضلاً عن سيطرة دولة المماليك الجراكسة على منفذين رئيسين من منافذ التجارة العالمية، هما البحر الأحمر والخليج العربي اللذان كانا ممراً لمعظم تجارة أوربا في نهاية العصور الوسطى، وهذا ما اثر تأثيراً كبيراً في الاقتصاد الأوربي [2]، الذي شكل قلقاً لدى القوى الأوربية وخاصة البرتغاليين منهم الذين أدركوا بأنه لا جدوى من الحرب العسكرية ضد الجراكسة، لذلك اتبعوا سياسة مغايرة تختلف عن السياسة العسكرية، وهي محاربه دولة المماليك الجراكسة اقتصادياً لأنها تعد من اكبر القوى الإسلامية في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي [3]، لذلك بدأت الجهود البرتغالية لاكتشاف طريق جديد يمكنها منه السيطرة على تجارة الشرق ويحل محل الطرق التجارية المسيطر عليها من لدن القوة البحرية الجركسية [4]، عندئذ بدأ الرحالة البرتغالي هنري الملاح [5] برحلته التجارية نحو الشرق، والذي تمكن من اكتشاف جزر خليج الرأس الأخضر ومصب السنغال وغامبيا وأقام هناك قواعد حربية وتجارية لهم، وبذلك استطاع من الوصول إلى ثلث الساحل الأفريقي الغربي[6]، ومن ثم توقفت الاستكشافات الجغرافية البرتغالية بسبب الحرب بينها وبين الأسبان في سنة (880-884هـ/1475- 1479م) لكنهم عاودوا نشاطهم في سنة 893هـ/1487م عندما أرسل الملك يوحنا الثاني بعثة استكشافية يرأسها الملاح برثليمو دياز، وكان هدفها الوصول إلى الهند عن طريق البحر مباشرة، وبالفعل وصلت البعثة إلى خليج الجو في أجواء عاصفة وعلى اثر ذلك سماه خليج الزوابع، وبعد عودته إلى بلاده رأى الملك ان يغير اسم الخليج إلى (الرجاء الصالح) لأنه بعث الرجاء في كشف الطريق

(1) سليم، عصر سلاطين: ج 1/ص9، صبري فالح حمدي، البحرين خلال السيطرة البرتغالية 1507-1602م ، بحث منشور في مجلة الوثيقة (البحرين: 1998م):ع 34 /ص 30-31.

(2)الحمداني، التحدي البرتغالي للوطن العربي: ع28 / ص 83-84؛ طرخان، البرتغاليون في غرب افريقيا: مج 25/ع1/ص 19.

(3) عاشور، بحوث ودراسات، ص 314-315.

(4)Kirk; , A short , p. 65.

(5) هنري الملاح: الابن الثالث للملك البرتغالي يوحنا الأول، كان مهتماً منذ صغره بالجغرافيا والفلك، ودرس الخرائط الجغرافية والإجرام السماوية والطرق البحرية، وحركة الرياح التي تساعد الملاحة والملاحين، هذا فضلاً عن اهتمامه ببناء السفن مما ساعد على تطور الملاحة البرتغالية. للمزيد ينظر: الزيدي، موسوعة تاريخ: ج2/ص406.

(6) عاشور، بحوث ودراسات، ص 314-315؛ أوربا العصور الوسطى (مكتبة الانجلو المصرية، مصر: 1972م): ج 1/ص572؛

E. B. " Portugal ": Vol. 18 / p. 280.

البحري المباشر إلى الهند [1]، وبذلك تحقق أمل البرتغالين في اكتشافهم الطريق المهم لتجارة التوابل[2]، ويذكر:((إن الفلفل الفينيسي قد عجز عن مواجهة الفلفل البرتغالي حتى نهاية القرن السادس عشر))[3]، فبدأوا في إرسال الأساطيل ذات القوة الفعالة المزودة بالأسلحة لغرض السيطرة الكاملة على الطرق التجارية[4]، وهكذا تمكنوا من السيطرة على تجارة الشرق بدلاً من دولة المماليك الجراكسة [5]، وبذلك أصبحَ البرتغاليون أصحابِ السيادة التجارية والبحرية بين الشرق والغرب، فقاموا بنقل السلع والمنتجات الشرقية بأسعار رخيصة، الأمر الذي أدّى إلى حرمان الجراكسة من أعظم مصدر اقتصادي لها، وخاصة عند فرض الضرائب على بضائع الشرق المتجهة إلى ميناء جدة أو التي كانت تمر بالموانئ المصرية ومنها إلى أوربا [6]، فعدَّ ذلك الاكتشاف تهديداً لاقتصاد دولة المماليك الجراكسة، بل وأثر سلباً على الممالك الإيطالية أيضاً كجنوة والبندقية وكل السواحل الهندية الغربية واليمن، علماً انه لم يكن ذلك الاكتشاف اكتشافاً جغرافياً فحسب، بل عُدَّ أيضاً اكتشافاً اقتصادياً مهماً [7]، ولذلك عمل البرتغاليون طوال تلك الفترة من أجل توطيد أقدامهم في الهند متخذين من منطقة Cochin قاعدة رئيسة لهم، وتدخل في الخط التجاري الممتد بين مصر والهند [8]، وكل ذلك كان له مردودٌ عكسيٌ على دولة المماليك الجراكسة، لأنها لم تعد مركزاً رئيساً للتجارة كما كان سابقاً، فأخذت القوافل التجارية تسير من الشرق إلى الأسواق الأوربية مباشرةً من دون المرور بموانئها، ممّا انعكس على واردتها من ناحية

(1) الزيدي، موسوعة تاريخ: ج2/ص 408؛
E. B. " Portugal ": Vol. 18 / p. 279-280.
(2)little , Modern Egypt, p. 25.
(3) History , p. 93.
(4) راغب حامد عبد الله البكر، الصليبيون والبحر الأحمر في العهدين الايوبي والمملوكي، بحث منشور في في مجلة آداب الرافدين (جامعة الموصل: 1997م): ع30 / ص124؛
Ayalon , Gumponder , p. 50.
(5) يوسف، التاريخ الاقتصادي، ص 102.
(6) العبادي، تاريخ البحرية، ص 266؛ شلبي، الموسوعة الإسلامية: ج5/ص9؛ سعيد، البحرية في عصر، ص181.
(7) فوزي جرجيس، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي (مطبعة الدار المصرية لطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة: 1958م)، ص 15؛ جلال يحيى، مصر الحديثة 1517- 1805م (منشأة المعارف، الإسكندرية: د. ت.)، ص 57.
(8) Chronicles , The Portuguese , p. 15 ; Toussaint , History , p. 93.

فرض الضرائب على البضائع الشرقية فكان ثمن قنطار [1] الفلفل مابين (2,5)، و(2) دوكة في قاليقوط، وبعد نقله إلى ميناء الإسكندرية يبلغ سعره(80) دوكه، في حين أصبح يباع في أسواق لشبونة بعد الاستكشافات الجغرافية بسعر يتراوح ما بين(20-40) دوكه [2].

وهكذا بدأت البحرية البرتغالية بسياسة التهديد والمحاصرة، ففي سنة 904هـ/1498م عسكر القائد البرتغالي بأسطوله عند مدخل البحر الأحمر لغرض منع دخول السفن الأوربية إلى الموانئ المصرية [3]، وفي السنة ذاتها يذكر Hitti عن عودة السفن البرتغالية إلى أوربا، وهي محملة بالبهارات ذات الجودة العالية والأثمان الباهظة [4]، فضلاً عن أنهم هددوا غزو الحجاز وقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر وتحويل متاجر الشرق بالقوة إلى أسواق لشبونة[5]، ومما يؤكد تلك التهديدات قيام الملك عمانوئيل بإرسال رسالة إلى البابا بوليس الثاني في سنة 911هـ/1505م قائلاً: ((انه ليس عازماً على المضي في قتل التجار المملوكية، بل سيقاتل في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعه وجنوده)) [6].

بعد أن تحقق هدف البرتغاليين في سيطرتهم على التجارة بين الشرق والغرب والتي مثلت المورد الرئيس بالنسبة للدولة الجركسية، فلم يبقَ أمام السلطان قانصوة الغوري شيء يستخدمه للحفاظ على مصدر قوة دولته وثروتها، غير انه وجد نفسه أمام أمرين لا محال منهما فتارةً يستخدم التهديد، وتارةً أخرى يتخذ أسلوب المهادنة السلمية [7]، فأرسل إلى ملوك الصليبيين يحذرهم من استمرار البرتغاليين والأسبان [8] في موقفهم العدائي في مياه

(1) القنطار معيار قيل وزن أربعين أُوقية من الذهب، ويقال ألف ومائة دينار، وقيل أيضاً مئة وعشرون رطلاً. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: ج 5/ص118 (مادة قنطار).

(2) راقد، الغزو العثماني، ص 126؛ فهمي، طرق التجارة، ص 30؛ دراج، المماليك والفرنج، ص 132؛ Chronicles , The Portuguese , p. 15.

(3) عوض، الاحتلال البرتغالي: ع 29 / ص 18؛ راقد، الغزو العثماني، ص 121.

(4) Hitti , Near East in history A 5000 Year Story (United States of America – New York: 1961) , p. 323.

(5) سعيد، البحرية في عصر، ص 182؛ دراج، المماليك والفرنج، ص 132.

(6) السورجي، أولى الانتصارات العربية:ع41،42/ص 47؛ E. B. " Portugal ": Vol. 18 / p.280 .

(7) العبادي، تاريخ البحرية، ص 266؛ سعيد، البحرية في عصر، ص 128؛ حمودة، صفحات من تاريخ،ص7؛ Philip , History , p. 697

(8) تلبيةً لطلب البابا تمكن البرتغاليون والأسبان من عقد اتفاقية في سنة (900هـ/1492م) باقتسام منطقة الشرق بينهما، لذلك كان الوضع غير المستقر في الشرق مشجعاً لهم، فضلاً عن تجارة الشرق التي كانت تمر بطريقين أساسيين إلى أوربا هما بحري وبري، فالأول سيطرت عليه الدولة العثمانية بعد سقوط مدينة القسطنطينية، والثاني سيطرت عليه دولة المماليك الجراكسة عبر البحر الأحمر. للمزيد

المحيط الهندي، عندئذ سوف تتخذ دولة المماليك الجراكسة إجراءات بحق رعاياهم المقيمين في مصر سواء كانوا تجاراً أم رهباناً، فضلاً عن إعلانه بأنه سيغلق كنيسة القيامة [1]، إلا أن تلك التهديدات لم ترعب الدول الأوربية عامة والبرتغاليين خاصة الذين استمروا في سياستهم التوسعية البحرية [2] لذلك لم يبقَ أمام السلطان الغوري سوى أن يقابل القوة بالقوة إذ ما تمكن من ذلك [3].

لقد اتصفت السياسة البرتغالية تجاه دولة المماليك الجراكسة بالعدائية، فاتخذت شكلاً خاصاً خلال محاربتها اقتصادياً، ولاسيما من الناحية التجارية، فبدأت السفن البرتغالية بمطاردة السفن التابعة لتجار دولة المماليك الجراكسة والاستيلاء عليها، وأغرقت قسماً منها عن طريق ضربها بالمدفعية، وكذلك فقد تمكنت القوة البحرية من السيطرة على المداخل الرئيسة للتجارة عند مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندي [4]، ممّا أدّى ذلك إلى تدهور الوضع الاقتصادي لمصر خاصة والممالك الإيطالية عامة، وذلك ما شجع السلطان الغوري على الاتصال بالبنادقة سراً، كما اتصل بالسامري ملك قاليقوط للعمل معاً في محاربة الأسطول البرتغالي [5]، إلاّ أن هذا الأمر لم يجدِ نفعاً، فلم يبق أمام دولة المماليك الجراكسة خيارٌ آخر للرد على الغزو البرتغالي سوى سياسة الضغط والتهديد بعد أن عجزت عسكرياً عن مقاتلتهم، لذلك كلف السلطان الغوري رئيس رهبان الفرنسسكان فرامورد دوسان برناردينو ومعه اثنان من أقرانه بالذهاب إلى أوربا لغرض التفاوض في مسألة الغزو البرتغالي مبتدئين بدوج البندقية، ومن ثم البابا جوليوس الثاني وفرديناند وإيزابيلا ملكي أرغون وقشتالة وفرديناند ملك البرتغال، بإبلاغهم ان لم تتوقف حملة اضطهاد المسلمين بالأندلس وإرغامهم على اعتناق النصرانية من جهة، وان يكف البرتغاليون عن العمل

من التفاصيل ينظر: علي غنام، كيف نجحت دولة أوربية صغيرة في استعمار بلدان كبيرة، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي (بغداد: 1987م): مج 19، ع1، 18-19.

(1) دراج، المماليك والفرنج، ص 134؛ Kirk , A short , p. 56.

(2) Lane – Pool , A history of the Egypt , p. 352.

(3) سعيد، البحرية في عصر، ص 182.

(4) محمد رزوق، صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج)، بحث منشور في مجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (القاهرة: 1985م):ع 2/ص 127-128؛ الحداد، مقاومة العرب، ع 45، ص 22؛ Kirk , A short , p. 65.

(5) الخربوطلي، الإسلام في حوض،ص163؛ حاطوم، تاريخ العصر، ص394؛ سعيد، البحر في عصر، ص 182.

العدائي في مياه المحيط الهندي ضد دولة المماليك الجراكسة من جهة أخرى، فانه سيقوم مضطراً ومكرهاً بقتل جميع الصليبيين المقيمين بدولته تجاراً ورهباناً، فضلاً عن إغلاق كنيسة القيامة [1].

بعد أن حملَ المبعوثان الرسالة التي كلفهم بها السلطان الجركسي، وصلوا إلى مدينة البندقية في سنة 910هـ/1504م، واطلع دوق البندقية على ما في الرسالة، فضلاً عن إعلامه بما حل بتجارتهم من تدهور جراء احتكار البرتغاليين للتجارة الدولية، إلا أن الدوق أوضح للمبعوثين عجز مدينته عن اتخاذ أي إجراء يخدم الجراكسة من حيث تزويدهم بالمساعدات الحربية، وكذلك عدم قدرته على القيام بدور الوسيط باصلاح ذات البين بينهم وبين البرتغاليين،وبهذا يتبين أن لذلك الموقف السلبي لدوق البندقية مبرراً وهو مخافة الدوق من ان يتهم بالخيانة من لدن الدول الأوربية إنْ فعل ذلك الأمر[2]، والواقع أن ذلك التحفظ الذي اتخذه البنادقة يمكن وصفه سياسياً بأنه ذو مكيالين، إذ حاولت من جهة أن تكون علاقاتها مع دولة المماليك الجراكسة بصورة غير علنية، وفي الوقت ذاته سعت إلى إبقاء الأهداف الصليبية سارية المفعول، لذلك قدمت المقترحات فقط إلى السلطة الجركسية من اجل القضاء على الخطر البرتغالي بإرسالها بعثة بقيادة سفيرها برناردينو جيوفا Bernardino Giove إلى السلطان الغوري يعرض عليه مشروع حفر قناة السويس [3]، وان يرسل إلى امراء الهند ويحثهم على إغلاق موانئهم أمام الغزو البرتغالي، فضلاً عن تخفيض أسعار التوابل حتى يتمكن تجار البنادقة من منافسة البرتغاليين في الأسواق الأوربية [4]، فأوضح السلطان لبعثة البنادقة انه لابد من قيام تعاون مشترك بينهما، وذلك عن طريق إمدادهم له بالأخشاب والأسلحة اللازمة لبناء أسطولاً لكي يواجه به الخطر البرتغالي في المحيط الهندي، فبذلك عادت البعثة تحمل المقترح السلطاني لدولتهم [5].

(1) دراج، المماليك والفرنج، ص 134؛ راقد، الغزو العثماني، ص 122-123؛ يحيى، مصر الحديثة، ص 58؛ Kirk , A short , p. 65.

(2) فهمي، طرق التجارة، ص 30؛دراج،المماليك والفرنج،ص134؛Ayalon , Gunmponder , p. 50.

(3) سرهنك، حقائق الاخبار، ص 36؛ دراج، المرجع نفسه، ص 135؛ سعيد، البحرية في عصر،ص182.

(4) الخربوطلي، الإسلام في البحر، ص 163؛ حاطوم، تاريخ العصر، ص 394؛ Ayalon , Gunmponder , p. 50.

(5) دراج، المماليك والفرنج، ص 133؛ جرجيس، دراسات في تاريخ، ص 15.

وعلى ما يبدو أن البنادقة حاولوا استغلال الظروف السياسية التي تمر بها دولة المماليك الجراكسة، فأرادوا التخلص من الرسوم الكمركية، والحفاظ على مصالحهم التجارية التي أخذت تفقدها، وخاصة بعد أن سيطر البرتغاليون على الموانئ الهندية الرئيسة واكتشاف الطريق الجديد للتجارة، فقد اخذت سفن البندقية تحمل نصف الكمية التي كانت تحملها قبل السيطرة البرتغالية على تجارة الشرق، مما اضطر تجارهم إلى التوجه إلى اسواق لشبونة لغرض شراء التوابل بسعر اقل وكمية اكبر [1]، على الرغم من الموقف المتذبذب من الجانب البندقي، إلا أن البعثة استمرت في رحلتها من اجل التحاور مع كل الأطراف صاحبة العلاقة وصولاً إلى البابا وإبلاغه فحوى رسالة سلطان مصر التي كانت تضم في طياتها التهديد الواضح الذي أقلقه،ودعاه إلى وجوب التدخل لحماية حجاج الافرنج والسعي على ان تبقى كنيسة القيامة مفتوحة للزائرين،عندئذ كتب البابا رسالتين إلى كل من ملكي اسبانيا والبرتغال طالباً من ملك البرتغال خاصة إيقاف تهديده للدولة المملوكية، فأجابه أنَّهُ لا داعي لتلك التهديدات الجركسية فهي لا تشكل خطراً على الدول الأوربية، وانه يطلب من ملوك أوربا توحيد الجهود لكي يتحقق المشروع الصليبي من اجل استعادة الأراضي المقدسة [2].

وفي غضون ذلك وانشغال البعثة في إيجاد حلٍّ لإيقاف الخطر البرتغالي وصلت الأخبار إلى السلطان الجركسي بان قائد الأسطول البرتغالي فاسكو دي جاما هاجم سفينة تابعة لدولة المماليك الجراكسة أمام ساحل مالا بار وعلى متنها عددٌ كبيرٌ من الحجاج الهنود ومحملةً بمادة البهار [3]، وبذلك أرسل السلطان قانصوة الغوري مبعوثه تغري بردي الترجمان إلى بلاد الفرنج (الصليبيون)، وخاصة بعد أن تزايد خطر البرتغاليين وسيطرتهم على السواحل والاستحواذ على أموال التجار [4]، إلا أن البعثة التي أرسلها السلطان الجركسي، قد فشلت في مسعاها، ويتضح ذلك من خلال الإجراءات التي اتخذتها الدولة المملوكية بحق التجار الصليبيين وخاصة البنادقة، الذين فرض عليهم السلطان شراء مادة البهار بأثمان مرتفعة، غير أن قائد سفن البنادقة رفض ذلك القرار، فوجد ان الهروب هو

(1) الزيدي، موسوعة تاريخ: ج 2 /ص410.
(2) دراج، المماليك والفرنج، ص 135-136.
(3) حاطوم، تاريخ العصر، ص 334؛ دراج، المرجع نفسه، ص 132.
(4) على ما يبدو ان تلك البعثة التي أرسلها السلطان لم تثمر سوى إطلاق سراح عدد من الأسرى المغاربة بمبلغ يقدر بخمسين ألف دينار. ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور: ج 4/ص 91، 164.

خير وسيلة لسفنه، فأبحرت من ميناء الإسكندرية من دون موافقة السلطات الجركسية، فحاولت البحرية الجركسية إيقافهم لكن من دون جدوى، أما سائر تجار البنادقة وقنصلهم فقد القي القبض عليهم، كما أمر السلطان بمصادرة بضائعهم في كل من مصر وبلاد الشام [1].

بعد أن استنفذ السلطان كل الوسائل لإيقاف الزحف البرتغالي تحتم عليه صد ذلك الغزو، الذي شكل تهديداً مباشراً لكيان دولته، وحفاظاً على بقائها جهز حملة[2] في سنة911هـ/1505م بقيادة الأمير حسين الكردي، وبصحبته عددٍ من البنائين والصناع وزهاء خمسين مركباً للإبحار من السويس إلى ميناء جدة لإنشاء الأبراج اللازمة لصد الهجمات البرتغالية، وعند وصول الحملة أمر قائدها إنشاء سورٌ وعددٌ من الأبراج حول المدينة مقابل ذلك تمكنت البحرية البرتغالية المتكونة من عشرين مركباً الاستيلاء على جزيرة سوقطرة الواقعة عند مدخل البحر الأحمر، حيث أقاموا أوّلَ محطة تجارية لهم، ثم عبرت باب المندب متجهة إلى ميناء عدن ومن ثم إلى سواكن لغرض الاتصال بملك الحبشة من اجل الاتفاق معه على تحويل مجرى نهر النيل، الذين كانت لهم الرغبة أيضاً في القضاء على دولة الجراكسة، وقد علق ابن إياس على الضرر الذي لحق بدولة المماليك الجراكسة من جراء السيطرة البرتغالية على المنطقة التجارية قائلاً: ((وصاروا يعبثون على مراكب الهند ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من بضائع حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد)) [3]، وأثناء تلك التداعيات من الأحداث التي كانت تواجهها الدولة المملوكية وصلت إلى القاهرة بعثة عثمانية بقيادة كمال، الذي أوضح للسلطان الجركسي قائلاً: ((بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلاً ونهاراً حتى أعيى الفرنج آخره)) [4]، فبعد الانتصار البرتغالي على الأسطول المملوكي قامت الملكة

(1) دراج، المماليك والفرنج، ص 136.
(2) لقد أشار ابن إياس في كتابه بدائع الزهور إلى أن السلطان قانصوة الغوري قد جَهّزَ ثلاث حملات الأولى أرسلها إلى مكة بسبب التمرد الذي قام به يحيى بن السبع أمير الينبع، والثانية توجهت نحو الكرك لمقاتلة المتمردين من عربان لام (العنزة)، والثالثة انطلقت إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين. للمزيد من التفاصيل عن تلك الحملات ينظر: بدائع الزهور: ج4/ص82، 106، 119.
(3) ابن اياس، بدائع الزهور: ج 4 /ص109.
(4) المصدر نفسه: ج 4 / ص84، 85، 109.

هيلانة ملكة الحبشة بالتعاون مع البرتغاليين لتحقيق الهدف الصليبي، فأرسلت الملكة هيلانة بعثة إلى قائد الأسطول البرتغالي المدعو الفونسو، والمقيم في ميناء دابل، فاستقبلهم وهم يؤكدون رغبة ملكتهم بالانضمام إليهم وتوحيد الجهود من أجل الاستيلاء على مصر والحجاز [1]، واستمراراً لرغباتهم التوسعية، فقد توجهوا إلى ميناء جدة لغرض التمركز على شاطئ الحجاز، إلا أنهم التقوا بالأسطول المملوكي في ميناء جدة، مما اضطروا إلى الانسحاب من البحر الأحمر [2]، فتبعهم الأسطول المملوكي متجهاً إلى سواكن، ومن ثم إلى شواطئ الهند وبذلك تمكنت القوات البحرية الجركسية من إنزال الهزيمة بالأسطول البرتغالي في موقعة شول Chaull على الشاطئ الغربي للهند في سنة 914هـ/1508م، فاسروا منهم سبعة وعشرين رجلاً، وأرسلوهم إلى السلطان قانصوة الغوري ففرح بذلك الانتصار [3]، ويعلق ابن إياس على ذلك النصر((ورجع الأمير حسين تخفق على هامته وعلى سواري أسطوله رايات الظفر وإعلان النصر فاقام بميناء ديو [4] عدة شهور حتى انقضى فصل الأمطار وأرسل إليه السامري ملك قاليقوط أربعين غراباً [مراكب صغيرة وسريعة الحركة] لتكون في خدمته)) [5].

وعلى الرغم من الخسارة التي تلقتها البحرية البرتغالية، واصلوا سياستهم الاستعمارية بالسيطرة على أجزاء من ساحل الهند فعسكروا بقواتهم البحرية هناك من اجل إخضاع أمراء المسلمين في الهند وإجبارهم على عقد معاهدات تلزمهم باقتصار التجارة على البرتغاليين، فكان لذلك الإجراء رد فعل قوي من جانب الأمراء الهنود باستغاثتهم

---

(1)ابن إياس، بدائع الزهور : ج4/ص84-85، 109؛
Chronicales , The Portuguese , p. 15.

(2)ابن إياس بدائع الزهور : ج4 /ص142؛ الحداد، مقاومة العرب، ص 23؛ الخربوطلي، الإسلام في حوض، 163.

(3)ابن إياس، المصدر نفسه: ج 4/ص142، 146؛ دراج، المماليك والفرنج، ص 137؛
Chronicales , The Portuguese , p. 15.

(4) ديو Diu: احد موانئ المحيط الهندي الساحلية المهمة، وكان سوقاً عالمياً ترد اليه منتجات العالم المختلفة ويوفد إليه تجار الشرق ومن الهند نفسها، فضلاً عن ذلك كان الميناء يصدر الخيول. ينظر: عثمان تجارة المحيط، ص 7؛
Taussainto , History , p. 104.

(5) بدائع الزهور: ج 4/ص142.

بسلطان مصر المملوكي، وتلبيةً لطلبهم أعدت الدولة المملوكية أسطولا ضخماً لمقاتلة البرتغاليين، الذين تمكنوا بقيادة قائدهم فرانسيسكوا الميدا نائب ملك البرتغال في الهند من محاصرة حاكم مدينة كوجين Cochin، فضلاً عن انتصاره على الأسطول الجركسي في موقعة ديو في سنة 915هـ/1509م [1]، وبعد ذلك ترك القائد البرتغالي فرانسيسكو حامية بقيادة فونس دي البوكركو[2]، وبذلك الانتصار تمكن البرتغاليون من فرض حصار شديد على جميع السفن الهندية المتجهة نحو البحر الأحمر ومنعوا الاتصال البحري بين الموانئ الهندية وميناء جدة، وتعزيزاً لذلك استولوا على القواعد التجارية التي تتحكم في تجارة الشرق، وذلك ما جعل ملوك الهند [3] يوفدون رسلهم إلى دولة المماليك الجراكسة طالبين المساعدة من السلطان قانصوة الغوري ان يرسل لهم حملة عسكرية إلى بلادهم من أجل إيقاف الخطر البرتغالي الذي اخذ بالتزايد والتوسع [4] في البلاد [5]، إلا أن السلطان الجركسي لم يرسل حملة بل أرسل بعثة بقيادة الطوشي بشير حاملاً كتاب السلطان إلى ملوك الهند، والذي أوضح فيه((بان يكونوا مع السلطان عونه على قتال الفرنج [البرتغاليين] الذين صاروا يتعبثون بسواحل بلاد الهند، وقد كثر منهم الفساد هناك، وبلغت عدة المراكب التي يعبثون في السواحل نحو من خمسين مركباً، والأمر إلى الله في ذلك)) [6].

ومن الجدير بالذكر أن عدم إرسال السلطان الجركسي حملة عسكرية واكتفاءه بإرسال بعثة، انه أراد اخذ الضمانات الكافية من ملوك الهند في التعاون معه لمحاربة البرتغاليين، وعلى ما يبدو ان تلك المراسلات لم تحقق شيئاً بدليل استمرار القوات البحرية البرتغالية بالتوسع والاستيلاء، فقد استولوا على ميناء ملقا [7]، قرب سنغافورة سنة

(1)ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص156؛ يحيى، مصر الحديثة، 58؛ شاكر، التاريخ الإسلامي: ج89/7؛ سرهنك، حقائق الأخبار، ص 36؛ الزيدي، موسوعة تاريخ: ج 2/ص410؛
Chronicales , The Portuguese , p. 15 –16 ; E. B. " Portugal ": Vol. 18 / p.280.

(2)E. B. " Portugal ": Vol. 18 / p.280.

(3) عن العلاقات المملوكية الهندية. ينظر: المشهداني، العلاقات المصرية، ص 25 وما بعدها.

(4) لقد كان لذلك التوسع الاستعماري البرتغالي في المنطقة وقعاً سيء على المستوين الرسمي والشعبي حتى أن قاضي القضاة الشافعي خص موضوع خطبة الجمعة عن الغزو البرتغالي وخطره وسيطرته على سواحل اليمن . ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور، 4 / 307 –308.

(5)المصدر نفسه: ج 4 /ص 182-183.

(6) ابن إياس، بدائع الزهور : ج4 /ص 185.

(7) ميناء ملقا: يقع في جنوب شرق آسيا، وتتجمع فيه منتجات الصين والهند وجزر الهند الشرقية. ينظر: دراج، المماليك والفرنج، ص 138.

917هـ/1511م [1]، وبعد ذلك تمكنوا من السيطرة على جزر قمران [2]، وحاصروا مدينة سواكن سنة 919هـ/1513م[3]، الأمر الذي حفز السلطان قانصوة الغوري بإرسال الأمير حسين والأمير خشقدم شاد الشوان إلى جدة من اجل التأكد من حقيقة ما وصل إليه الفرنج البرتغاليين من سيطرة وتوسع ومحاصرة مدن [4].

لقد أصبح موقف السلطنة الجركسية حرجاً، فالغزو البرتغالي اخذ يتوسع ويفرض سيطرته على المراكز التجارية المهمة هذا من جانب، ومن جانب آخر موقف البندقية السلبي التي رفضت مبدأ التعاون مع دولة المماليك الجراكسة ضد الغزو البرتغالي، علماً أنها كانت تشكل دعماً سياسياً واقتصادياً لدولة المماليك، لذلك لم يبق خيار أمام السلطان الغوري غير طلب المساعدة من الدولة العثمانية بناءً على معاهدة الصلح بينهما والتي تم عقدها سنة 898هـ/1492م، فاستجاب السلطان العثماني بايزيد لذلك الطلب، والذي ردَّ بدوره بان على العثمانيين مسؤولية مساعدة الجراكسة، ولاسيما الدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة [5]، فأرسل ثلاثين مركباً وثلاثمائة مدفع ومائة وخمسين شراعاً وثلاثين ألف سهماً والفي مجذاف وبارود يقدر بحوالي (40) قنطاراً ونحاس وحديد وغير ذلك مما تحتاجه المراكب، وقد وصلت تلك الإمدادات إلى بولاق ومن بعد ذلك نقلت إلى القلعة [6]، ومقابل ذلك أرسل السلطان الجركسي مبعوثه مالا علي يونس العادلي إلى الدولة العثمانية ليشتري ما تحتاجه دولته من أخشاب وحديد، إلا أن السلطان العثماني رفض اخذ المال، فجهزه مرة ثانية بناءاً على طلب سلطان دولته [7]، وعلى الرغم من عدم وصول تلك الإمدادات وما نتج نتج عن موقعة ديو من خسارة، إلا أنها لم تضعف من عزيمة السلطان الغوري بل صمم على إرسال حملة ثانية للانتقام من البرتغاليين، بالرغم مما كانت تعانيه دولته من أخطار خارجية متمثلة بقراصنة فرسان الاسبتارية، لذلك جهز أسطولاً مكوناً من اثنين وعشرين

(1) الزيدي، موسوعة تاريخ: ج2 /ص 410؛ سعيد، البحرية في عصر، ص 184؛
E. B. " Portugal ": Vol. 18 / p.280.

(2) قمران: جزيرة في البحر الأحمر تقع قبالة زبيد في اليمن، وتعد محطة بحرية مهمة بين ميناء عدن وجدة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج 4/ص387.

(3)ابن إياس، بدائع الزهور: ج 4/ ص 307، 331.

(4)ابن إياس، المصدر نفسه: ج 4 /ص 308.

(5) راقد، الغزو العثماني، ص 123؛ فهمي، طرق التجارة، ص 30؛
Ayalon , Gunmponder , p. 51.

(6) ابن إياس، بدائع الزهور: ج 4/ص201.

(7)المصدر نفسه: ج4 /ص201؛ Ayalon , Gunmponder , p. 51.

مركباً، وانفق الكثير من المال على الحملة يقدر بحوالي أربعمائة ألف دينار، فضلاً عن حضوره أثناء تحرك الحملة من البحر الأحمر فبعد وصولها إلى ميناء جدة انسحب الأسطول البرتغالي إلى شواطئ الهند [1]، وتعزيزاً لتلك الحملة طلب قائد الحملة الجركسية الأمير حسين الكردي قوة إضافية من السلطان قانصوة الغوري قائلاً له: ((وان الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران من ضياع جهات الهند... إرسال تجريدة [حملة] بسرعة قبل أن تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جدة من أمر الفرنج)) [2]، وبناءاً على ذلك الطلب جهز السلطان في سنة920هـ/1514م حملة بقيادة سليمان العثماني، وتعد هذه الحملة هي الأخيرة، وبعد سنة من تجهيزها تحركت باتجاه الشواطئ الهندية تمكنت من الوصول إلى كمران ومقاتلة البرتغاليين [3]، وعلى الرغم من قوتها إلا أنها لم تحقق نصراً حاسماً على البحرية البرتغالية، وذلك يعود إلى:

1. قوة الأسطول البرتغالي المجهز من حيث العدد والعدة.
2. بعد الأسطول المملوكي عن وصول الإمدادات إليه.

تمكنت البحرية المملوكية من إبعاد الخطر البرتغالي عن البحر الأحمر، ومن ثم عادت الحملة إلى ميناء جدة، نتيجة لما حققته الحملة من إبعاد الخطر البرتغالي عن مياه البحر الأحمر، وإعادة السيطرة على ميناء عدن، فذلك النجاح الذي تم إحرازه لم يدم طويلاً بسبب حصول خلاف بين قائدي الحملة، والاهم من ذلك ظهور الخطر العثماني الذي اخذ يهدد دولة المماليك الجراكسة وانتصارهم على الجيش المملوكي [4] في معركة مرج دابق [5]، ونتيجة لتلك الأحداث التي شغلت دولة المماليك الجراكسة، استغلت البحرية البرتغالية الفرصة للقضاء على البحرية الجركسية المتواجدة في ميناء جدة، فتصدت لهم القوة الجركسية سنة 922هـ/1516م، فتمكنت من إيقاف التهديد البرتغالي، وإبعاد خطرهم للمرة الثانية عن البحر الأحمر عائدين إلى بلاد الهند، وبذلك أصبحت مياه البحر الأحمر تحت

(1) ابن إياس، المصدر نفسه: ج 4/ص381.
(2)المصدر نفسه: ج 4/ص383.
(3) ابن إياس، بدائع الزهور: ج 4/ ص381-383؛ سعيد، البحرية في عصر، ص 184؛
Chronicales , The Portuguese , p. 16.
(4) ابن إياس، المصدر نفسه: ج 4 /ص 207-208؛ راقد، الغزو العثماني، ص 126؛ سعيد، المرجع نفسه، ص185.
(5) مرج دابق: المرج المكان الواسع فيه نبات كثيف، ودابق: قرية قرب حلب بينهما أربعة فراسخ. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج2 /ص 416-417؛ ج 5/ص100.

السيادة المملوكية إلى إن سيطر العثمانيون على مصر، وعلى الرغم من السيطرة على الطرق التجارية، الا انها فشلت في القضاء على التفوق البحري البرتغالي [1].

وقد ترتب على الصراع الجركسي البرتغالي في مياه المحيط الهندي، ضعف النشاط التجاري في الموانئ المصرية بسبب توقف المراكب التجارية التي تنقل منتجات الشرق إلى مصر، وهذا ما أدى بدوره إلى توجه تجار الصليبيين من أسواق دولة المماليك الجراكسة في مصر وبلاد الشام إلى الأسواق الأوربية، ويذكر ابن إياس عن الأزمة المالية التي حلت بمصر سنة 920هـ/1514م قائلاً: ((وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحو من ست سنين)) [2]، ويذكر أيضاً بمناسبة زيارة السلطان الغوري ميناء الإسكندرية في السنة ذاتها ((لم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ من أعيان التجار لأمن المسلمين والفرنج، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القُباض [المسئولين عن الضرائب]، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العُشر عشرة أمثال، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب)) [3].

وهكذا كانت الأقدار أقوى من عزيمة السلطان قانصوة الغوري الذي كان أمله تحقيق الانتصار على البرتغاليين، الذين نجحوا في حرمان دولة المماليك الجراكسة من مصدر ثرائها وقوتها الاقتصادية، وهذا ما أدى إلى انهيارها تدريجياً وصولاً إلى سقوطها.

ثانياً: الدولة العثمانية وسياستها التوسعية

تعد الدولة العثمانية من القوى السياسية المهمة التي قامت في منطقة الشرق، بعد أن هاجرت من أواسط آسيا قبيل بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي من جراء الضغط المغولي متجهه غرباً حتى استقرت بآسيا الصغرى [4]، إلا أن انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية سنة 707هـ/1307م أتاحت لهم الفرصة بالتوسع سريعاً على حساب الإمارات والقبائل التركمانية من جهة والدولة البيزنطية والإسلامية من جهة أخرى، واستمرت في تقدمها وتوسعها من دون الاصطدام بقوى أخرى حتى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع

(1) سعيد، البحرية في عصر، ص 186-187؛ الزيدي، موسوعة تاريخ: ج 2 /ص 410.
(2) بدائع الزهور: ج4/ص 359.
(3) المصدر نفسه: ج4/ص 424.
(4) الصلابي، الدولة العثمانية، ص 42

عشر الميلادي[1]، وفي بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي تعرضت الدولة العثمانية لمواجهات من جانب المغول بقيادة تيمورلنك عندما اجتاح معظم آسيا، وتمكن من إنزال هزيمة ساحقة بالجيش العثماني في موقعة أنقرة سنة 805هـ/1402 التي تم اسر السلطان بايزيد فيها [2]، علماً أن منطقة الشرق تقاسمتها ثلاث قوى رئيسة تمثلت بالصفويين والعثمانيين والمماليك [3].

فقد كان برنامج الدولة العثمانية هو القضاء على الدولة الصفوية[4] أولاً، وضم دولة المماليك الجراكسة ثانياً، ومقاتلة البرتغاليين ثالثاً، وبالفعل تمكنت القوات العثمانية من تحقيق هدفها الأول سنة 920هـ/1514م بانتصارها على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل الصفوي في موقعة جالديران [5]، اما الهدف الثاني، وهو ضم دولة المماليك الجراكسة، على الرغم من انه كان هناك علاقات سياسية قائمة منذ بداية قيام دولة المماليك الجراكسة مع العثمانيين، وتحديداً في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وكانت صفة تلك العلاقة ودية نوعاً (ما) خاصة أثناء عهد السلطان العثماني مراد الأول (761-791هـ/1360-1389م) حيث قام بإرسال وفداً قبيل انتهاء حكمه بسنة إلى

(1) الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 9-12.

(2) المقريزي، السلوك: ج3 / ق3 /ص1091؛ احمد بن محمد بن عبد الله ابن عرب شاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور (المطبعة العامرة العثمانية، مصر: 1905م)، ص 123-132؛ الصيرفي، نزهة النفوس:ج2 /ص 149؛ Lane – Pool , A history of the Egypt, p. 66.

(3) لقد حكمت الدولة الصفوية القسم الشرقي من الأناضول والعراق وإيران، أما الدولة العثمانية، فسيطرت على قسماً من أوربا والقسم الأكبر من الأناضول في آسيا، أما دولة المماليك الجركسة، فكانت تحكم مصر وبلاد الشام والحجاز. ينظر: ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (جامعة الدول العربية، القاهرة: 1957م)، ص 38؛ يحيى، مصر الحديثة، ص 59.

(4) الدولة الصفوية: يرجع نسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الاردبيلي (650-735هـ/ 1252-1334م) الجد الأكبر للشاه إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة الصفوية. للمزيد من التفاصيل عن تكوين الدولة ونشأتها. ينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، ص 190-199؛ عماد الجواهري، صراع القوة السياسية، ص 49؛ عمر، تاريخ المشرق، ص 66-67.

(5) لقد نتج عن تلك الموقعة أمور كثيرة منها:
أولاً: ضم شمالي العراق وديار بكر للدولة العثمانية.
ثانياً: تمكنت الدولة العثمانية من تامين حدودها الشرقية.
ثالثاً: أيقنت الدولة العثمانية بضرورة القضاء على دولة المماليك الجراكسة.
رابعاً: سيطرة البرتغاليون على البحار الشرقية، وفرضوا حصاراً كاملاً على الطرق التجارية بين الشرق والغرب. ينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، ص 190-198.

السلطان برقوق[1]، محملاً بالهدايا، وكذلك ينبهه من التحركات التيمورية المنطلقة من تبريز [2] نحو الغرب مما شكل خطراً على كيان الدولتين المملوكية والعثمانية [3]، وقد استقبل الوفد بالتكريم والحفاوة من لدن السلطان الجركسي، واظهر استعداده للتعاون والتفاوض معهم لصد الخطر التيموري، إلا انه كان متحفظاً من السياسة التوسعية للدولة العثمانية التي أخذت تهدد حدود دولته، وهذا ما توضح لنا من سياق قوله ((لا أخاف اللنك [تيمور لنك] فان كل احد يساعدني عليه، وإنما أخاف من ابن عثمان)) [4]، ونستشف من وراء كلام السلطان برقوق انه يستطيع بسهولة جمع كل القوة السياسية الإسلامية لمقاتلة التيموريين جرياً على ما اعتاد عليه المماليك ضد أي تحرك مغولي قادم من الشرق، إلا أن الدولة العثمانية اختلف الأمر معها لكونها بعيدة نوعاً هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد اتخذ الأمراء العثمانيين مبدأ الجهاد في سبيل الله لمحاربة الإفرنج منهجاً لهم، وهذا ما ينسجم مع مبادئ السياسة المملوكية التي تنص على استمرار مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ومن هنا جاءت مخاوف السلطان برقوق [5].

ولم تلبث الأحداث ان اثبتت مخاوف السلطان برقوق، إذ هجم بايزيد الأول (791-805هـ / 1389-1402م) على إحدى المناطق التابعة لدولة المماليك الجراكسة، وهي إمارة بني قرمان في سنة 794هـ / 1391م، وتم القبض على صاحب المدينة [6]، إلا أن العلاقة بين الجراكسة والعثمانيين عادت إلى طابعها الودي بحكم اقتراب الخطر التيموري من المنطقة لذلك سارع السلطان العثماني إلى عقد اتفاق جديد مع دولة المماليك الجراكسة لصد ذلك الغزو[7]، ورداً على ذلك أرسل السلطان برقوق في سنة 797هـ / 1494م بعثة إلى

(1) لقد حصل تمرد وعصيان ضد السلطان برقوق حيث خرج نائب ملطية الأمير تمربغا الافضلي المعروف بمنطاش ونائب حلب الأمير يلبغا الناصري زعيم المماليك الأتراك اليلبغاوية وانظم إليهما سائر نواب الشام وأمير إمارة (ذو الغادر) التركمانية وأمير عربان بادية الشام، لذلك أرسل السلطان حملتين عسكريتين من مصر، إلا أنهما فشلتا في القضاء على تلك التمردات. للمزيد ينظر: المقريزي، السلوك: ج3 / ق2/ ص593 - 594، 600؛ الصيرفي، نزهة النفوس: ج1/ص 188-189، 192.

(2) تبريز: أشهر مدن أذربيجان ذات أسوار وقلاع محكمة، وفي وسطها عدة انهار جارية وبساتين محيطة بها. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج2/ص 13.

(3) المقريزي، السلوك: ج3 / ق2 /ص574؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج1/ص349؛ الصيرفي، نزهة النفوس: ج1/ص167.

(4) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه: ج1/ص492؛ ينظر: السخاوي، الضوء اللامع: ج 11/ص148.

(5) الزهيري، العثمانيون في السياسة ، ص 34.

(6) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات: ج9 / ق2 / ص339؛ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر: ج 1/ص453.

(7) المقريزي، السلوك: ج3 / ق2 /ص791.

السلطان العثماني بايزيد لتوثيق أواصر العلاقات بينهما فرحب السلطان بالبعثة ثم قامت البعثة بتقديم التشريف السلطاني له متمثلاً بالسيف ورد السلطان على ذلك التقليد قائلاً بأنه: ((مملوك السلطان ومهما رسم فعلى الرأس والعين)) [1]، فضلاً عن ذلك فان البعثة كانت بمثابة حل لمسألة الخلاف الحدودي بين الجانبين، لذا فقد اختار العثمانيون بنو قرمان الأقرب جغرافياً لهم وقبل المماليك بعودة مملكة الروم وضعها السابق فهي الأقرب جغرافياً لهم أيضاً [2]. ومما هو معلوم أن الدولة العثمانية كانت لديها تصوراً واضحاً في أن مصر تعد مركز الخلافة الإسلامية فعليها إذاً أن تكون دائمة الاتصال بمصر، لذلك بقيت على ذلك الحال عن طريق إرسال البعثات إليها، وبالفعل أرسل السلطان العثماني بعثة لإخبار السلطان الجركسي بانتصار قواته على القوات الأوربية في موقعة نيقوبوليس سنة 799هـ / 1396م [3].

وبعد وفاة السلطان برقوق، توترت العلاقات بينهما لان السلطان بايزيد الأول استغل حالة الضعف والاضطراب السياسي الذي حل بالدولة المملوكية في عهد السلطان الناصر فرج، لذا تحركت القوات العثمانية بحملة تقدر بعشرين ألف مقاتل نحو ملطية [4]، وبعدها دخلت إمارة (ذو الغادر) التركمانية استعداداً للتوجه نحو بلاد الشام [5].

وهذا ما ثار قلق الدولة المملوكية من تطلعات العثمانيين بالتوسع في أراضيهم، وعلى ذلك عقدوا اجتماعاً على الفور في القصر السلطاني وبحضور الأمراء والقضاة، وتم الاتفاق على إعلان الحرب على بني عثمان، فسارعوا بإرسال مرسوم سلطاني مملوكي بيد الأمير سودن الطيار يقضي فيه تجهيز العساكر الشامية لقتال العثمانيين [6].

(1) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات: ج9 / ق 2 /ص 339.
(2) كي لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس واخر (مطبعة الرابطة، بغداد: 1954م)، ص 16.
(3) نيقوبوليس: مدينة تقع شمال البلقان، وفيها حدثت معركة بين القوات العثمانية والقوات الصليبية، فتمكن فتمكن العثمانيون من إحراز النصر، فعلق السلطان بايزيد إزاء ذلك النصر أن يستفتح ايطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما. ينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، ص 68.
(4) ملطية: بلدة من بلاد الروم تقع بمحاذاة بلاد الشام. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج5/ص192-193.
(5) المقريزي، السلوك: ج3/ ق 3/ص965-971؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج2 /ص 55-56.
(6) المقريزي، السلوك: ج3 / ق3 /ص1031.

وفي خضم تلك الأحداث والعلاقات المتوترة بين الجانبين المملوكي والعثماني أدرك السلطان العثماني خطر تحركاته العدائية ضد الجراكسة، فأراد تدارك الموقف، فأرسل على الفور بعثة إلى السلطان الجركسي يطلب منه تصفية الخلافات بينهما وتوحيد الجهود من اجل التخلص من خطر التيموريين، لتصبح الأراضي العربية الإسلامية اكثر امناً واستقراراً [1]، إلا إن ذلك الطلب العثماني لم ينفذ، ولم يلق قبولاً عند الدولة المملوكية، فكان الرد على لسان احد أمرائهم ((ذاك الآن صار صاحبنا، وعندما مات أستاذنا الملك الظاهر برقوق، مشى على بلادنا واخذ ملطية من عملنا فليس هو لنا بصاحب، يقاتل هو عن بلاده، ونقاتل نحن عن بلادنا ورعيتنا))[2].

وعلى ما يبدو ان عدم تصفية الخلافات وحلها دبلوماسياً وكون الدولة المملوكية عاشت اثنتي عشرة سنة من 803هـ/1400م وحتى سنة 815هـ/1412م في فوضى سياسية وصراعات مستمرة على السلطة، كل ذلك أنهكها سياسياً وعسكرياً مما اضعف سيطرتها على مناطق نفوذها المباشرة وغير المباشرة في الأناضول، مقابل ذلك أيضاً فقد تعرضت الدولة العثمانية إلى عدة هجمات تيمورية أثرت على سياستها التوسعية [3]، وقد منحت تلك الاضطرابات والاختلافات بين المماليك والعثمانيين الفرصة للتيموريين بان يتقوى نفوذهم ليصل إلى حد تهديد كيان الدولتين، وبالفعل قاموا بانزال هزيمة ذريعة بالقوات العسكرية المملوكية قرب دمشق وذلك في سنة 803هـ/1400م، وبعد سنتين من ذلك الهجوم تمكنوا من إنزال هزيمة أخرى بالدولة العثمانية وإحراز نصراً عليها [4].

وبعد تلك الأحداث انقلبت الأوضاع وشهدت العلاقات المملوكية العثمانية تطوراً كبيراً نحو السلم والتقارب، إذ استعادت الدولتان عافيتهما بعد ما حل بهما، واهم ما ميز تلك الفترة انه كان هناك توازن بين القوتين المملوكية والعثمانية، وتشابه الصفات الشخصية لحاكميهما من حيث الحزم والشجاعة والرغبة في التوسع، فعند تولي السلطان (الشيخ المؤيد) السلطنة بمصر، لذا بدأت كل من الدولتين في السعي لتحقيق أهدافهما، وأصبحت منطقة الأناضول هدفاً إستراتيجياً لهما، وذلك لتثبيت نفوذهم السياسي على الإمارات

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج 12/ص180.
(2)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج12/ص216-217.
(3) للمزيد من التفاصيل ينظر: الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 56 وما بعدها.
(4) المقريزي، السلوك: ج3 / ق3 /ص 1031-1051؛ ابن عرب شاه، عجائب المقدور، ص 85-90.

التركمانية، والتي كانت تعد حماية لدولة المماليك الجراكسة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً [1]، وعلى هذا فان الخطر التيموري كان سبباً في التقارب الودي في العلاقات بين الجراكسة والعثمانيين، ومما هو معلوم أن دولة المماليك الجراكسة كانت تعاني تدهوراً اقتصادياً منعها من بناء أسطول بحري يحمي دولتها من الهجمات الخارجية عليها، لذا التجأت إلى الدولة العثمانية لما لها من ثقل سياسي وعسكري في المنطقة، وبهذا توطدت العلاقات بينهما ولاسيما في عهد السلطان العثماني محمد الأول وتحديداً في سنة 816هـ/1413م الذي قام بدوره بتقديم المساعدات المتضمنة سفناً محملة بالأخشاب والحديد والسلاح ومعدات أخرى، وفي السنة ذاتها أرسل السلطان العثماني بعثة يرأسها الطنبغا وجانبك الصوفي تعزيزاً للعلاقات بينهما [2].

وتواصلاً لتلك العلاقات أرسل السلطان العثماني مراد الثاني بعثة محملة بهدايا نفيسة إلى السلطان الجركسي الاشرف برسباي وتهنئة بتوليه عرش السلطنة المملوكية، وبالمقابل قدم السلطان الجركسي هدية للسلطان العثماني في سنة 827هـ/1423م، واستمراراً للسياسة الودية بين الدولتين أرسل السلطان العثماني مراد الثاني بعثة إلى السلطان الجركسي برسباي يبلغه مبشراً له بفتح قلعة كوكر جنيلك على نهر الدانوب سنة 831هـ/1427م [3].

وعلى ما يبدو ان التقارب الودي في العلاقات المملوكية العثمانية في عهد السلطان برسباي، يعود إلى انشغال دولة المماليك الجراكسة بخطرين مهمين، الأول: الصليبيين، والثاني: التيموريين، ومن هنا فقد حتم الظرف السياسي على المماليك أن ينظروا إلى العثمانيين كقوة صديقة أو حليفة لهم في هذه المرحلة هذا من جانب، ومن جانب آخر جاء ذلك الانسجام والتوافق في العلاقات نتيجة لتوجه كلا الدولتين نحو تحقيق أهداف تنسجم مع الأهداف السياسية الأخرى، أو لا تتعارض معها، ويمكن أن نلمس ذلك من خلال ما يأتي:

أولاً: توجه الدولتين بفتوحاتهما نحو بلاد الإفرنج (الصليبيون)، وبالتالي اتسمت جهودهما بمعاني الجهاد وإعلان كلمة الإسلام، فالمماليك كانوا يقاتلون في قبرص وجزيرة رودس والعثمانيين يجاهدون في أوربا.

(1) المقريزي، المصدر نفسه: ج3/ ق3/ص585؛ وينظر: الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 25.
(2) دراج، المماليك والفرنج، ص 148؛ الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 209
(3) الحصري، البلاد العربية، ص 20؛ E. B. " Murad II ": Vol. 22 / p. 592.

ثانياً: كانت الأناضول ساحة للتنافس والصراع بينهما، لذلك لم تشهد تلك الفترة (825-838هـ/1421-1434م) أية أحداث سياسية بين الدولتين [1]، وبهذا كانت العلاقات في غاية الودية والانسجام طيلة ثلاث عشرة سنة.

وتمضي الأحداث وتستمر العلاقات الودية بين الطرفين وصولاً إلى عهدي الظاهر جقمق والاشرف أينال اللذان سارا على نهج سياسة السلطان برسباي الودية، وبهذا أصبحت العلاقات أكثر وثوقاً وتعززت بزواج السلطان جقمق من الأميرة العثمانية شاه زادة [2]، وهكذا بقيت العلاقات محافظة على هدوئها واستقرارها تتوجها الهدايا والمراسلات [3]، عن طريق البعثات، وفي غضون ذلك احتفلت القاهرة بفتح القسطنطينية في سنة 857هـ/1453م [4]، وقد علق ابن تغري بردي على ذلك الحدث قائلاً: ((فَسُرَّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سروراً زائداً ودقت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما)) [5].

إلا أن تلك العلاقات لم تدم طويلاً على هذا المنوال فبعد سنة 865هـ/1460م إذ أصابها الفتور ومن ثم التوتر من جراء عوامل مستجدة منها التغيير المفاجئ الذي طرأ على شخصية السلطان محمد الفاتح الذي أصابه حب العظمة، وأشعره بأنه قادر على كل شيء واستصغاره لدولة المماليك الجراكسة، وكذلك حدث فتح القسطنطينية والتوغل في البلقان في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي الذي رفع من معنويات الدولة العثمانية، وجعلها دولة عظمى ووجه أنظارها نحو الشرق، وخاصة في آسيا الصغرى من اجل السيطرة على الإمارات التركمانية التي كانت تشكل خطاً دفاعياً من جهة شمال الشام والعراق[6]، وذلك ما أثار قلق الدولة المملوكية، وخاصة حينما بدأت الدولة

(1) الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 76-77.
(2) أرملة السلطان برسباي، وقد أنجبت من السلطان جقمق ولداً اسمه احمد توفي في سنة 856هـ/1402م. ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص464.
(3) من الهدايا التي أرسلها السلطان العثماني خمس من الجواري وكمية كبيرة من الحرير وخمسين أسيرا، وذلك على اثر انتصاره على جيش لادسلاس Ladislas ملك المجر وهنيادي Hunyadi نائب ترانسلفانيا في موقعة فارنا سنة 848هـ/1444م، وقد قصد السلطان العثماني من إرسال الأسرى إلى دولة المماليك الجراكسة إظهار ما كان يقوم به العثمانيون من خدمات للإسلام. ينظر: المصدر نفسه: ج15/ص395.
(4)المصدر نفسه: ج15 / ص395؛ حسن، مصر في العصور، ص 339؛ سعيد عاشور، مصر والشام، ص 366-367؛ الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 89-90.
(5) ابن تغري بردي المصدر نفسه: ج 16 /ص 71.
(6) شاكر، التاريخ الإسلامي: ج7 /ص90؛ ماجد، علاقات بين الشرق، ص 240؛ سليمان البستاني، عبر وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق: خالد زياد (دار الطليعة، بيروت: 1978م)،

العثمانية بالتدخل في شؤون الإمارات التركمانية التابعة سياسياً للدولة المملوكية، فقد كانت تلك الإمارات تعيش في حالة من الاضطراب السياسي نتيجة للتنازع على الحكم، وذلك ما جعل الدولة العثمانية تؤيد وتساعد بعض من الأطراف المتنازعة على الحكم على حساب الإمارة الأخرى، وبالمقابل تدخلت دولة المماليك الجراكسة لمساعدة الطرف الآخر الذي كان يرغب في توليته على الإمارات التركمانية، وهذا ما ولد حالة من التصادم غير المباشر بين الجراكسة والعثمانيين[1]، عندها شعر المماليك بالخطر العثماني المتزايد من جراء سياستهم التوسعية، ففي عهد السلطان قايتباي أخذت العلاقات تزداد توتراً بين البلدين لأسباب منها: قضية الاستيلاء على الهدايا المرسلة من ملك الهند إلى السلطان بايزيد الثاني من جانب نائب جدة هذا ما أضفى على العلاقات جواً من التوتر والاضطراب بينهما، وكذلك لجوء الأمير جم [2] إلى الدولة المملوكية وترحيب السلطان المملوكي به [3]، فضلاً عن ذلك سيطرة الدولة المملوكية على مدينة (اطنة) [4] التي كانت تحت السيادة العثمانية [5]، وكل تلك الأسباب دعت الدولة العثمانية إلى مد يد العون للأمير علاء صاحب إمارة ذو الغادر الذي خرج على السلطنة المملوكية سنة 888هـ/1483م، وتمثل ذلك بإرسالها الجنود من اجل الهجوم على المدينة التي سيطرت عليها القوات المملوكية، وبالمقابل سيطرت الدولة العثمانية على بعض القلاع والمدن التابعة لدولة المماليك الجراكسة، وهذا ما شعر به السلطان قايتباي بتأزم الأوضاع، لذلك حاول التخفيف من وطأة الأمر وذلك بطلبه عقد الصلح مع الدولة العثمانية، بإرساله مبعوث إلى السلطان العثماني فرد قائلاً: ((أنا ما أخذت

ص 8؛ حمادة، الوثائق السياسية، ص 78؛ الصلابي، الدولة العثمانية، ص 90-120؛ سعيد عاشور، مصر والشام، ص 206؛

Lane – Pool , A History of the Egypt , p. 347.

(1)Lane – Pool , A History of the Egypt, p. 347.

(2) عند وفاة محمد الفاتح كان ولداه بايزيد وجم خارج اسطنبول، فكان الأول حاكماً في أماسيا، والثاني في قونية حاكماً على ولاية قرمان، وقد قام حاكم قرمان بإبلاغ الابن الأكبر بايزيد بالذهاب إلى اسطنبول بعد وفاة والده، وفي الوقت ذاته أرسل إلى الأمير جم يطلب منه الذهاب أيضاً. للمزيد من التفاصيل ينظر: الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 142-146؛ E. B. " Bayezid II ": Vol. 22 / p. 593.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور: ج5 / ص 215؛ يحيى، مصر الحديثة، ص 65؛ شاكر، التاريخ الإسلامي: ج7 /ص90؛ E. B. " Egypt ": Vol. 8 / p. 63

(4) اطنة أو ادنة: مدينة بالشام بينها وبين المصيصة اثنا عشر ميلاً. ينظر:الحميري،الروض المعطار،ص20.

(5) مبارك، الخطط التوفيقية: ج1/ص126؛ سليم، عصر سلاطين: ج1/ص54؛ الاشرف قانصوة الغوري (دار مصر، مصر: د. ت.)، ص 31.

هذه القلاع إلا بالسيف وما أردهم إلا بالسيف، وانه ما هو راجع عن التوجه إلى حلب والشام وحدثت نفسه بأخذ مصر)) [1]، إلا أن الدولة العثمانية لم تصغِ لطلب السلطان الجركسي، ظناً منها إضعاف الدولة المملوكية عسكرياً واقتصادياً بإتباعها سياسة المد والجزر والهدف في النهاية هو القضاء على دولة المماليك الجراكسة [2].

بعد وفاة السلطان قايتباي وتولي ابنه الناصر محمد (901-904 هـ/1495-1498م)، اتسمت العلاقات الجركسية العثمانية بالهدوء نسبياً وأصبحت أكثر استقراراً من ذي قبل والتي استمرت إلى سنة918هـ/1512م في عهد السلطان العثماني سليم الأول [3]، إلا أن تولي السلطان سليم كان أمرا مخيفاً لدولة المماليك الجراكسة، وذلك لما عرف عنه من قوة وصلابة وبطش، فكان يلقب بـ (ياوز) أي الرهيب [4]' إذ احدث بمجيئه تغييراً جذرياً في السياسة العثمانية بعد ما وصلت إليه من التوسع، فما المطلوب منه أن يفعل ؟ هل سيكتفي بهذا القدر من التوسع ؟ أم يستمر بالتوسع الإقليمي في أوربا ؟ أم يتجه نحو المشرق الإسلامي؟ إلا انه قرر التوجه إلى الشرق، وذلك لسببين هما:

إنقاذ العالم الإسلامي عامة، والمقدسات الإسلامية، خاصة من الخطر الصليبي المتمثل بالأسبان في البحر المتوسط، والبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر.

الحد من سياسة الدولة الصفوية في إيران، وذلك لمحاولتها لبسط المذهب الشيعي في العراق واسيا الصغرى [5].

وبعد ذلك تم القضاء على الدولة الصفوية في شمال وغرب إيران [1]، حينها لم يبق أما السلطان سليم الأول سوى دولة المماليك الجراكسة، وكانت لرغبة العثمانيين في القضاء على المماليك أسباب منها:

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص483.

(2) سعيد عاشور، مصر والشام، ص 368-369؛ العصر المماليكي، ص 188؛ الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 152.

(3) لقد كان السلطان الجديد يشبه إلى حد كبير جده السلطان محمد الفاتح، الذي كان مغرماً مثله بقراءة سيرة القادة كالاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر، ولذلك سار على نهج جده، ومصمماً على مواصلة أهدافه في بناء إمبراطورية عالمية. ينظر: الزهيري، العثمانيون في السياسة، ص 214-215.

(4) كراموز، مادة " سليم الأول ": ج12/ص121-131.

(5) يحيى، مصر الحديثة، ص 63-64؛ الصلابي، الدولة العثمانية، ص 189-190؛ الدباغ، الموجز في تاريخ، ص 154؛ جرجيس، دراسات في تاريخ، ص 100؛

Litti , Modern Egypt , p. 22 ; Hassan Abdullah , The Hand Book of Egypt (Printing House Cairo , Cairo: 1966) , p. 23.

تأييد دولة المماليك الجراكسة لبعض المتمردين على الدولة العثمانية، ومنهم الأمير احمد اخو السلطان سليم الأول.

الخلاف الحدودي بين الدولتين في منطقة طرسوس الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام.

تشجيع علماء الدين للسلطان سليم بضم مصر وبلاد الشام والمناطق الإسلامية المقدسة وتقديم الدعم له.

التحالف المملوكي ـ الصفوي ضد الدولة العثمانية هذا من جانب [2]، وخاصة عندما استقبل السلطان قانصوة الغوري مبعوث الشاه إسماعيل الصفوي، الذي كان يحمل كتاباً إلى سلطان مصر موضحاً فيه أن الاعتداءات التي شنتها قواته ضد المناطق التابعة لدولة المماليك لم يكن له علماً بها [3]، ومن جانب آخر كانت دولة المماليك الجراكسة تعاني من تدهور أصاب الوضع الداخلي والخارجي، تمثل بإتباع السلاطين الجراكسة سياسة احتكارية، فضلاً عن كثرة التمردات الخارجة على الدولة، والاهم من كل ذلك هو الخطر الخارجي المتمثل بالبرتغاليين [4].

وبعد تهيأ الأسباب للدولة العثمانية، قامت بأول أعمالها التوسعية، وذلك باستيلائها على الجزيرة الفراتية وإمارة ذو الغادر سنة 921هـ / 1515م الأمر الذي جعل السلطان الغوري يشعر بالخطر العثماني الذي بدأ يهدد كيان دولته [5]، ولذا قام باتخاذ الاحتياطات والإجراءات اللازمة التي ستمكنه من الدفاع عن دولته، وبذلك اصدر السلطان أمراً يقضي بإعداد عدة الحرب وتحصين قلعة قايتباي بالإسكندرية، وفي غضون تلك الاستعدادات حصل تمرد من الجلبان، وذلك بسبب تأخر رواتبهم وأثناء ذلك أيضاً وصل إلى مصر الأمير قاسم العثماني ابن أخ السلطان سليم هارباً من عمه بعد أن قتل السلطان أباه [6].

---

(1) على ما يبدو أن دولة المماليك الجراكسة اتخذت موقف الحياد حيال الصراع العثماني ـ الصفوي على اعتبار أن علاقة السلطان المملوكي كانت سيئة بالشاه إسماعيل الصفوي، وبالمقابل أنها لا تقل سوءً عن العلاقة مع الدول العثمانية. للمزيد ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص395.

(2) للمزيد من التفاصيل عن تلك الأسباب ينظر: الصلابي، الدولة العثمانية، ص 199-201.

(3)ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص 123.

(4) Harris J. R. , The lagucy Egypt (Great Britain , oxford: 1972) , p. 463.

(5)ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص396، 462-463؛ حسن، مصر في العصور ص 340.

(6) ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص473؛ العريني، المماليك، ص 263؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص 188؛ مصر والشام، ص 255.

وهكذا بدأت بوادر الحرب تلوح في سماء دولة المماليك الجراكسة، ولاسيما بعد وصول الأخبار إلى السلطان الجركسي قانصوة الغوري عن الحشود والاستعدادات التي يعدها السلطان العثماني سليم قرب الحدود المصرية، الأمر الذي حفز السلطان الغوري بان يستعد هو أيضاً لمواجهة التهديد العثماني، وفي تلك المرحلة الحرجة وصلت رسالة من نائب حلب خاير بك يوضح فيها انه لم تكن في نية العثمانيون الهجوم على دولتهم بل كانت تستهدف الدولة الصفوية، علماً أن نية نائب حلب لم تكن صادقة لأنه أراد إبعاد السلطان عن حقيقة الأمر[1]، وهكذا كان لعامل الخيانة دوراً مهماً في انهيار دولة المماليك الجراكسة، وبهذا انكشف النقاب عن حقيقة خيانة خاير بك، الذي كان له علاقة بالعثمانيين منذ وقت مبكر، ذلك ما شّكل خطراً على دولة المماليك الجراكسة، بحيث سهل مهمة القوات العثمانية في السيطرة على بلاد الشام،فضلاً عن اتصاله بالأمير سيباي نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغوري،فكتب سيباي بدوره إلى السلطان يصف له حالة البلاد السيئة من الناحية الاقتصادية ولا تتحمل مجيء الجيش، ولاسيما وان العثمانيين لم يتحركوا نحو بلادهم قائلاً: ((وان كان العدو متحرك فنحن له كفاية)) [2].

وفي الحقيقة أن نائب الشام لم يكن يعلم النية السيئة التي كان يخفيها الأمير خاير بك من وراء ذلك، بدليل انه عندما تم القبض عليه فجأة أدرك خيانة الأمير خاير بك، فقام على الفور بإرسال رسالة إلى السلطان الجركسي يعلمه حقيقة الأمر، قائلاً: ((يا مولانا السلطان إذا أردت الله أن ينصرك على عدوك، فاقتل هذا الخائن)) [3]، وبعد ذلك تدخل بعض الأمراء فتم الإفراج عنه، ولم يهتم السلطان الغوري بذلك الأمر بل عزم على عقد مجلساً حربياً لمشاورة أمرائه من اجل إيجاد حل لذلك الخطر، وبعد المشاورات قاموا بإرسال حملة كبيرة إلى حلب يقودها السلطان بنفسه [4]، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر نائب حلب في خيانة دولته، فبعد وصول الجند إلى الريدانية سنة 922هـ/1516م استعداداً للخروج إلى بلاد الشام، وصلت رسالة إلى السلطان الغوري من خاير بك أوضح فيها ان السلطان العثماني يرغب

(1) ابن إياس، المصدر نفسه: ج5 / ص7؛ أنيس، الدولة العثمانية، ص 111، احمد اسعد طلس، عصر الانحدار يشتمل على تاريخ العراق وبلاد الشام ومصر (دار الأندلس، بيروت: 1963)، ص 76.
(2) ابن إياس، المصدر نفسه: ج5/ص26؛ مبارك، الخطط التوفيقية: ج1/ص131.
(3) أنيس، الدولة العثمانية، ص 110.
(4) ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص435؛ محمد علي داهش، العلاقات المغربية العثمانية 1510-1912م(منشورات اتحاد المؤرخين العرب، د. م: 2002م)، ص 14؛ طلس، عصر الانحدار، ص76.

بعقد صلح، إلا أن التحركات العثمانية والتدخل في الشؤون الداخلية للإمارات التابعة للجراكسة، جعلت السلطان قلقاً من السياسة التوسعية للدولة العثمانية التي أخذت بالتوجه نحو مصر [1]، وقد كان قلقه في محله لأنه أدرك حقيقة رغبة العثمانيين من السيطرة على بلاده، فلذا أرسل مبعوثه لغرض عقد اتفاق سلمي معهم، لكن الرد كان عكسياً فقيل لمبعوث السلطان ((قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق)) [2].

وهكذا بدت الحرب أمام الجانبين أمراً لا مفر منها، فبدأت القوات العثمانية بالاستيلاء على ملطية وكركر[3] وبهسنا [4] مقابل ذلك تحرك الجيش الجركسي شمالاً لملاقاة العثمانيين في مرج دابق شمال حلب [5]، فالتقى الجيشان سنة 922هـ/1516م، فأبلى الجيش الجركسي بلاءاً حسناً، مما اضطر الجيش العثماني إلى الانسحاب لإعادة تنظيم صفوفه [6]، وبعدها استأنف القتال بينهما، وأثناء ذلك انتشر خبر يقضي بان السلطان الغوري أمر جنده بعدم التقدم لحين صدور أوامر منه، فضلاً عن أساليب خاير بك في زعزعة الثقة بين المقاتلين، وذلك بقيامه ببث أخبار كاذبة منها أن السلطان قتل في المعركة [7]، وعلى ما يبدوا كان هدف خاير بك من ذلك الإجراء الذي قام به أراد أن يزعزع عزيمة الجيش المملوكي وبالتالي خسارتهم في المعركة، وهذا ما جعل السلطان قانصوة الغوري يدرك حقيقة خيانة نائب حلب، واستمر القتال بين الجانبين، إلا أن العثمانيون كثفوا هجومهم على صفوف الجيش المملوكي، مما أربكهم وجعل السلطان يسقط من على ظهر جواده أثناء المعركة، فارداه قتيلاً [8]، وبهذا انتهت معركة مرج دابق، وهي المعركة الفاصلة بين المماليك

(1) ابن اياس، المصدر نفسه: ج4/ص435؛ طلس، عصر الانحدار، ص 76؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص 190-191.
(2) مبارك، الخطط التوفيقية: ج1/ص131؛ عاشور، العصر المماليكي، ص 191.
(3) كركر: مدينة أنشأها انو شروان، وتقع بالقرب من مدينة ملطية وحصن الران. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج4/ص452-453.
(4) بهسنا: قلعة حصينة بالقرب من مرعش وسميساط. ينظر: ياقوت الحموي، المصدر نفسه: ج1/ص516.
(5) Hitti , Near , p. 324.
(6) الدباغ، الموجز في تاريخ، ص 154؛ داهش، العلاقات المغربية، ص 14.
(7) الدباغ، الموجز في تاريخ، ص 154؛ حسن، مصر في العصور، ص 140؛ طلس، عصر الانحدار، ص110.
(8) قطب الدين محمد بن احمد المكي، البرق اليماني في الفتح العثماني (دار اليمامة، الرياض: 1967م)، ص 24؛ مبارك، الخطط التوفيقية: ج1/ص131؛
Gabriele , A Short , p. 100.

والعثمانيين، ونتج عنها وفاة السلطان الغوري، وانسحاب بقايا الجيش المملوكي إلى حلب ومنها إلى دمشق ومصر [1].

وتداركاً لذلك الموقف الصعب الذي عاشته دولة المماليك الجراكسة، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، تولى عرش السلطنة طومان باي آخر سلاطين السلالة الجركسية، الذي لم يحكم سوى بضعة شهور، فكان ذلك سنة 922هـ/1516م ولقب بلقب الاشرف [2]، ووصف بشجاعة[3]، إلا انه لم يلق تأييداً من أمراء دولته لشعورهم بالإحباط التام نتيجة للخطر المحيط بدولتهم[4]، وبالمقابل فان سيطرة العثمانيين على بلاد الشام جعلت الموقف اكثر صعوبة، لأنهم طلبوا من السلطان الجركسي اعترافاً بالسيادة لهم، وان يكون هو نائباً للسلطان العثماني في حكم البلاد والقيام بسك العملة باسمه، إلا ان الرفض كان جواب السلطان الجركسي، غير مهتم بما حل بالقوات الجركسية في موقعة مرج دابق [5]، لكنة قام بتجهيز حملة لمقاتلة العثمانيين في بلاد الشام، إلا أن مستشاريه لم يشجعوه على ذلك الفعل متحججين بأعذار واهية، خوفاً مما حصل في معركة مرج دابق، فضلاً عن طلبهم منه أموال باهظة جداً،مما اضطر السلطان أن يجند ما يمكن تجنيده من اجل الخروج إلى الريدانية لمحاربة العثمانيين والتخلص من خطرهم [6]، وكذلك فقد قام بتجهيز ما يحتاجه جيشه من مدافع وبنادق من تجار البندقية، فضلاً عن إقامة خط دفاعي عند الصالحية [7].

(1) عاشور، العصر المماليكي، ص 193؛ يحيى، مصر الحديثة، ص 82؛
Gabriele , A Short , p. 100 ; Hitti , History , p. 703.

(2) شمس الدين محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ـ تاريخ مصر والشام ـ، تحقيق: محمد مصطفى (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة وللطباعة، القاهرة: 1962م): ج2 /ص 24؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص 235؛ الدباغ، الموجز في تاريخ، ص 157؛ طلس، عصر الانحدار،ص 111.

(3) رونالد Roland: إحدى الشخصيات الأسطورية المعروفة لدى الشراكسة الذي كان يوصف بأنه كان كان يجابه الصعوبات والمحن. ينظر:
P. M. Holt , studies in the History of the near East (Great Britain , London: 1973) , p. 153.

(4) سعيد عاشور، مصر والشام، حسن، مصر في العصور، ص 341.

(5) الجواهري، صراع القوة، ص 262؛
Ayalon , Gunponder , p. 51.

(6) عاشور، مصر والشام، ص 262؛ سليم، عصر سلاطين: ج7/ص198.

(7) بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي (دار الآفاق الجديدة، بيروت: 1972م)، ص 42؛ الجواهري، صراع القوى، ص 73.

وفي سنة 923هـ/1517م، وصلت رسالة أخرى من السلطان العثماني سليم الأول يذكر فيها ((انك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية الملك)) [1]، وطالباً منه ان يكون نائباً عنه في مصر، وهدده بأنه إذا رفض ذلك فانه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من المماليك، فضلاً عن إرساله رسالة إلى أمراء مصر يرغبهم في الدخول تحت طاعته [2]، وبناءاً على تلك التهديدات التي تلقاها السلطان الجركسي، خرج بمن معه إلى الريدانية بالقرب من العباسية[3]، متخذاً منها مركزاً للدفاع عن دولته من الخطر العثماني، إلا أن العثمانيين وصلوا عن طريق الشرقية محاولين دخول القاهرة، والتقوا مع القوات المملوكية، فدارت معركة بينهما، فتمكنت القوات العثمانية من السيطرة على أجواء المعركة، مما جعل سائر الجيش المملوكي ينسحب مضطراً، وأثناء الانسحاب من المعركة تعرض الجيش المملوكي لهجمات من البدو الأعراب، وهذا ما أدى إلى انهيار الجيش المملوكي بالكامل، ودخول القوات العثمانية إلى مصر [4]، وبذلك تمكن السلطان سليم الأول من السيطرة على مصر ووضع جميع أقاليمها تحت السيادة العثمانية [5]، إلا أن جيوب المقاومة بقيت مستمرة من قبل السلطان طومان باي ومن بقي معه محاولين إخراج القوات العثمانية، لكن من دون جدوى، لكن القوات العثمانية أحكمت السيطرة على مصر بصورة تامة، وقضت على كل رموز المقاومة، ولذلك وجد السلطان الجركسي نفسه عاجزاً تماماً عن مقاتلتهم، وبعد ذلك تمكنت القوات العثمانية من إلقاء القبض عليه، عندها قال السلطان العثماني ((الآن ملكنا ملك مصر)) [6].

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور: ج5/ص125؛ عاشور، العصر المماليكي، ص 195.

(2) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص 196.

(3) العباسية: بلدة بأرض مصر، وهي أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، وتبعد عن عن القاهرة خمسة عشر فرسخاً(الفرسخ ما يعادل 6كم تقريباً). ينظر: فالتر هنتس المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي (مطبعة القوات المسلحة الأردنية، عمان: 1970م)، ص 94، و سميت بتلك التسمية نسبة إلى عباسة بنت احمد بن طولون. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج4/ص75؛ القزويني، آثار البلاد، ص 220.

(4) القرماني، أخبار الدول، ص 144؛ المكي، البرق اليماني، ص 240؛ الشرقاوي، تحفة الناظرين، ص 153-154؛

Wilfred Cantweel smith , Islam in Modern Egypt , Fourth Printing (united States of America , London: 1966) , p. 167 ; E. B. " Selim I ": Vol. 22 / p. 593.

(5) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص 270؛

Harris , The lagucy , p. 463 ; Fisher , the Middle , p. 145.

(6) مبارك، الخطط التوفيقية: ج1/ص147؛ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث (دار التقدم، موسكو: 1971م)، ص 7.

ويمكن أن نجمل أسباب انهيار دولة المماليك الجراكسة، ودخول القوات العثمانية إلى مصر بعدة نقاط أبرزها:

تطور المعدات الحربية العثمانية، واستحداث طرق جديدة في القتال، وهذا ما أوقع الرعب في صفوف الجيش المملوكي، وحدا بان يقال: ((ومن يطيق هذا الأمر المهلك [السلاح] لا يقاتل هؤلاء إلا مجنون)) [1].

صفة الخيانة التي تفشت بين أمراء الجيش المملوكي والتي كشفت خططهم وتدابيرهم.

اضطراب الوضع الداخلي لدولة المماليك الجراكسة وانتشار الفتن التي أضعفت قوتهم وزعزعت ثقتهم بأنفسهم.

الخطر العثماني الذي هدد دولة المماليك الجراكسة من الجهة الشمالية،فضلاً عن ذلك عدم امتلاك السلطان الغوري خبرة في السياسة الخارجية، وكيفية التعامل من أعدائه، وخاصة إذ كانت دولته مهدده من جهات عدة، وكذلك العجز المالي الذي كانت تعاني من دولته بسبب الحرب الفاشلة مع البرتغاليين [2].

كل تلك الأسباب قادت الدولة المملوكية إلى الهاوية وكسرت شوكتها، ومكنت الدولة العثمانية من استغلال تلك الظروف، لتكون هي في النهاية سيدة الموقف في مصر.

(1) المصدر نفسه : ج1/ص131؛

Hitti , Near , p. 324.

(2) Pertold , the Muslim: Part. II / p. 79.

ثالثاً: سياسة الدولة الاحتكارية

بدأ التدهور الاقتصادي يصيب دولة المماليك الجراكسة ابتدءاً من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ويعود ذلك إلى كثرة الأخطاء وتراكمها في سياسة السلاطين الجراكسة، وكما هو معلوم أن الجانب الاقتصادي يتكون من ثلاث قطاعات الزراعي والحرفي والتجاري، فالزراعي كان مهملاً بحيث أدى إلى قلة إيرادات الدولة، مما جعلها تبحث عن مصدر بديل لسد النقص الحاصل في إيرادتها، فلم تجد أمامها سوى الاعتماد على التجارة الخارجية من خلال إتباع سياسة الاحتكار بفرض الضرائب على البضائع التجارية [1].

اتبع سلاطين المماليك الجراكسة سياسة أسهمت في ازدهار التجارة الخارجية لمصر وهي السياسة الودية المعتدلة مع التجار الأوربيين، فضلاً عن قيامهم بإنشاء الفنادق وإعطاء بعض التجار امتيازات خاصة مثل التجار البنادقة والفلورنسيين، لكن بالمقابل كان للإطماع الشخصية لبعض السلاطين الجراكسة باتخاذهم سياسة الاحتكار لغرض جمع الأموال بأسهل الطرق، وبهذه السياسة التي كانت عاملاً مهماً في انهيار دولة المماليك الجراكسة، وما ترتب عليها من نتائج سلبية، وهي عدم قدرة التجار الأوربيون من شراء البضائع، ولاسيما الأساسية كالتوابل والبخور، وهذا ما أدى إلى تذمر التجار من جراء تلك السياسية [2]، فضلاً عن ذلك أدت تلك السياسة إلى اضطراب الوضع الداخلي لدولة المماليك الجراكسة، فحصلت بعض التمردات، وتحديداً في سنة 908هـ/1502م متمثلة بالتمردات التي قام بها العربان من الجهة الشرقية والغربية وجهة الصعيد، حتى كادوا أن يسيطروا على البلاد، لذلك أرسل السلطان قوة مؤلفة من عدة أمراء، فأرسل طراباي إلى الجهة الغربية، أما الأمير قاني باي قرا أمير آخور اتجه إلى الشرقية، وخاير بك وقانصوة ابن اللوقا أرسلا إلى جهة الصعيد [3].

---

(1) سليم، عصر سلاطين: ج2/ص262؛ عبد الفتاح محمد وهيبة، الجغرافية التاريخية، دراسة أصولية إقليمية (منشأة المعارف، الإسكندرية: د. ت.)، ص 308.

(2) Walteg Fisehel , the Spice – trad in Mamluk Egypt , Journal of the Economic and Social History of The Orient , (Leiden , Brill: 1960): Vol. I , par. 2 / p p. 172-173.

(3) للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص52 –53، 273.

كما كان لبعض السلاطين أطماع مادية بحتة لإشباع رغباتهم الشخصية وحاجتهم الخاصة من الرقيق والفراء والخيول ولا يلقون بالاً للمصلحة العامة، وقد وضح المقريزي ذلك ذاكراً ((ويحصل لسلطان مصر من عشور التجار مال كبير... فانه يأخذ من التجار الواردين من الهند عشور بضاعتهم)) [1]، الأمر الذي أدى إلى الأضرار بطبقة التجار، وهذا ما خلق أزمة مالية ترتب عليها انخفاض النشاط التجاري المعتمد على التبادل النقدي [2]، ومن الأمور الأخرى إهمالهم لوسائل الإنتاج الأساسية كالزراعة والصناعة، وهذا ما أدى إلى تدهور الاقتصاد الجركسي، علماً أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان له دور مهم في القضاء على التجارة المملوكية، لذلك اضطر السلاطين على إتباع سياسة الاحتكار وإجبار التجار الأوربيين على المرور عبر أراضيهم من دون إتباع طرق تجارية أخرى [3].

لدراسة أسباب انهيار دولة المماليك الجراكسة بصورة عامة، لابد من التركيز في بادئ الأمر على الوضع الداخلي المتمثل بسياسة السلاطين وما نتج عنها من آثار سلبية على الصعيدين الداخلي والخارجي، فكانت البداية منذ عهد السلطان الشيخ المؤيد، عندما وصل التجار الأوربيون إلى الموانئ المصرية سنة 815هـ/1412م، فعرض عليهم البضائع بسعر مرتفع حددته الدولة، فامتنعوا من الشراء وعادوا إلى بلادهم من دون بضائع، وبعد سنة من ذلك أمر السلطان الجركسي احد تجار دولته الشيخ علي الكيلاني بالذهاب إلى الهند لشراء مادة الفلفل بقيمة خمسة آلاف دينار، لغرض خزنها في متجره الخاص [4]' واستمراراً لتلك السياسة فقد ازدادت أكثر سوءاً في عهد السلطان برسباي، لأنه اعتمد تلك السياسة لتعويض ما حل بدولته من خسائر نتيجة الحروب المستمرة مع القوى الصليبية في جزر البحر المتوسط، فضلاً عن اختلاف النظام الإقطاعي لدولته، وعلى ما يبدو كان الهدف من تلك السياسة الحصول على المال بأسهل الطرق، ومن أكثر السلع المحتكرة لدى السلاطين الجراكسة التوابل والبخور،وذلك ما أدى إلى ارتفاع أثمانها، الأمر الذي أصاب التجار

(1) السلوك، ج4 / ق4 /ص 929.
(2) عبد الرحيم، نشوء الراسمالية المحلية في مصر في العهد العثماني (1517-1789) استناد إلى المحاكم الشرعية المصرية بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية (القاهرة: 1985م): مج 5 / ع18 / ص 48.
(3) المقريزي، السلوك: ج4 / ق1 / 226.
(4) ابن إياس، بدائع الزهور: ج1 /ص 354-355.

بالضرر من جراء تلك السياسة فضلاً عن تغيير العملة [1] في عملية التبادل التجاري مما زاد من تذمر تجار غرب أوربا، لذلك قاموا بسلك طريق آخر غير طريق البحر الأحمر من اجل الوصول إلى الهند والحصول على منتجات الشرق عن طريق المحيط الأطلسي [2].

وتطبيقاً لسياسة الاحتكار فقد اصدر السلطان برسباي أمراً يقتضي بمنع بيع مادة البهار إلى التجار الصليبيين مباشرةً، بل تخزن في متجر السلطان [3]، لغرض رفع سعر البضاعة، ففي سنة 832هـ/1428م ارتفع سعر البضائع من مائتين وعشرين درهماً للإردب إلى ثلاثمائة[4]، ومن ثم تباع لهم إجباراً بسعر يقدر بما يقرب من مئة وعشرون دينار، في الوقت

الذي كان فيه سعر الفلفل ثمانين دينار [5]، واستمراراً لسياسة الاحتكار فقد اصدر السلطان الجركسي في سنة 833هـ/1429م أمراً يقضي بإحضار التجار أمامه فطلب منهم بان لا يبيع احد منهم شيئاً من أصناف البضائع التي تجلب من الهند كالفلفل خاصة إلى التجار الأوربيين، فضلاً عن تشكيله لجنة من التجار يقومون بشراء البضائع من منشئها وجلبها إلى مصر، ومن ثم يقوم ببيعها إلى التجار الأوربيين بالسعر الذي يحدده [6]، ويعلق ويعلق المقريزي على ذلك قائلاً: ((والزم الفرنج بشراء الحمل من الفلفل بمائة وثلاثين ديناراً، وهذا سعره بالقاهرة خمسون دينارا ...)) [7]، وقد كان حصيلة تلك السياسة الاحتكارية التي اتبعها السلطان برسباي أن يقدم التجار الايطاليين، ولاسيما البنادقة بمراسلة السلطان الجركسي سنة 836هـ/1432م طالبين منه تخفيض الضرائب عنهم، لكن السلطان لم

(1) لقد هدف السلطان برسباي من إتباع تلك السياسة تقليل قيمة العملة الأجنبية، فقد كان سعر الدينار الافرنتي بمئتي وثلاثين ديناراً، فبعد استبداله بالعملة الوطنية أصبحت قيمة الدينار الافرنتي مائتي وعشرين ديناراً، مما أدى إلى كساد تجاري. ينظر: المقريزي، السلوك: ج4 / ق1 /ص 396-397.

(2) الحجي، الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك (815-823هـ/ 1412-1420م) بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية (القاهرة: 1989م):مج9/ع52/36؛

Boaz Shoshan , Exchang Rate Policies in Fifteen the Century Egypt , Journal of the Economic and Social History of The Orient , Netger Lands (Leiden , Brill: 1986): Vol. XXIX. Part. I / pp. 28-29.

(3) المقريزي، السلوك: ج4 / ق2 /ص823، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر: ج 3 /ص547 .

(4) المقريزي، المصدر نفسه: ج4 / ق2 / ص 824.

(5) المقريزي، السلوك: ج4 / ق 2 /ص 824، 967؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج 3 /ص473؛ الصيرفي، نزهة النفوس: ج 3 /ص 145، 155.

(6) ابن حجر، العسقلاني، المصدر نفسه : ج 3 /ص 423؛ الصيرفي، المصدر نفسه: ج 3 /ص 145-146، 146، 341.

(7) المقريزي، السلوك: ج 4 / ق 2 /ص 801.

يستجب لهم، مما اضطرهم إلى مقاطعة دولة المماليك الجراكسة، وذلك ما جعل السلطان أن يعدل عن قراره، ويفرض شروط تخدم الجانبين[1]، وتكرر الأمر أيضاً مع التجار الكتلانيين، فقد رفضوا شراء البضائع، فادى ذلك إلى مقاطعة دولة المماليك الجراكسة تجارياً، محاربتهم عن طريق أعمال القرصنة [2]، إلا أن تلك الأعمال لم تغير سياسة السلطان الاحتكارية، ففي سنة 839هـ/1435م بلغ السلطان أن تجاراً قاموا بنقل الفلفل من دمشق إلى جدة، فغضب لذلك الأمر، فاصدر مرسوماً أوضح فيه ((إن من اشترى بهاراً بجدة يحمله إلى القاهرة سواء كان المشتري كائناً ما كان: شامي، مصري، عراقي، هندي، رومي)) [3]، ويذكر المقريزي أيضاً عن تلك السياسة الاحتكارية قائلاً ((تقدم مرسوم للسلطان بمنع التجار من بيع الفلفل، وان الفرنج لا تشتريه إلا من الديوان السلطاني))[4].

ومما هو جدير بالذكر أن تمكن السلطان برسباي من إتباع سياسة الاحتكار يعود إلى استقرار الدولة المملوكية، وسيطرتها على التجارة الخارجية، وإتباع السلاطين سياسة تقر أن المصلحة الشخصية فوق المصلحة العامة، ومن ناحية أخرى فان لتلك السياسة الاحتكارية مردوداً ايجابياً لسلاطين الدولة، من حيث جمعهم للأموال عن طريق فرض ضرائب باهظة الثمن على البضائع، بالمقابل فان ذلك الأمر كان له تأثير سلبي على التجارة الخارجية لدولة المماليك الجراكسة، لكون التجار الأوربيون تذمروا من تلك السياسة الأمر الذي شجعهم على البحث عن طريق آخر يوصلهم إلى بضائع الشرق، فكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح هو الأسلم لتجارتهم، وان اجتماع كل تلك الأمور أدت إلى انهيار دولة المماليك الجراكسة تدريجياً للنقص الحاصل في وردائها التجارية، ومن ثم آلت إلى السقوط بأيدي الدولة العثمانية [5].

في حين يذكر أن أسباب انهيار دولة المماليك الجراكسة يعود إلى سببين أساسيين الأول هو فتح القسطنطينية على يد الدولة العثمانية سنة 857هـ/1453م، ووصول الغزاة

(1) ابن حجر، العسقلاني، إنباء الغمر: ج 3/ص483؛ سالم، تاريخ الإسكندرية، ص 167؛ دائرة المعارف الاسلامية، نهايم، مادة " برسباي ": ج7 /ص 153؛
Lane – pool ,A history of the Egypt , p. 340.

(2) طرخان، مصر في عصر، 289؛ الحجي، علاقات بين سلطنة، ص 340.

(3)المقريزي، السلوك: ج4 / ق2 /ص965؛ الصيرفي، نزهة النفوس : ج3 /ص338.

(4) المقريزي، المصدر نفسه: ج4 / ق 2 /ص967.

(5) Little , Modern , p. 25-26.

البرتغاليين إلى المحيط الهندي سنة 904هـ/1498م ثانياً [1]، إلا أن ذكر عن سبب انهيار دولة المماليك الجراكسة هو السياسية الاحتكارية التي اعتمدها بعض السلاطين الجراكسة، وخاصة السلطان برسباي، الذي فرض قيود التداول التجاري بين التاجر والدولة [2].

(1) History , p. 93.
(2) The Muslim: Part. II / p. 78.